

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

(يَا بَنِي آدَهْبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يِيَأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْكَافِرُونَ) (يوسف: ٨٧)

في نهاية السنة الميلادية التي ستنتهي بعد يوم^١ وتبدأ سنة جديدة، كثير من الأوضاع التي تحكم العالم ليست بخافية على الناس، كيف كان العالم في السنة السابقة؟ هناك طريقة في تنبؤ المستقبل وهو أن المستقبل سيكون شبيهاً بالماضي، الفقر في العالم يزداد ومشاكل العالم تزداد والناس يزدادون جوعاً، وخوف الناس يزداد والأسلحة المدمرة تزداد خطورة وكثرة في العالم وهكذا، فالأوضاع تكون موحشة ومخيفة، وإذا الإنسان هكذا يفكر: أن المواعظ لا تنفع وأن الدعوة إلى الخير لا تنفع، والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف لا ينفعان إلا بمقدار ضئيل جداً، (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (آل عمران: ١٠٤)

باعتبار أن السنين هي في الحقيقة مقاطيع زمنية اعتبارية، يعني فلنفرض أن في أول هذا الشهر الإفرنجي سوف لا تتغير السنة، السنة تمشي، الزمان يجري كما كان، وعلى اعتبار ما يقال أن عيسى بن مريم (ع) قد ولد في هذا الوقت لذلك يُجعل هذا الوقت بداية سنة جديدة، يقال أن الماضي يجسد ويعكس المستقبل، فالمستقبل يكون بتغيرات وتبدلات قليلة يمكن التنبؤ بها على أساس الماضي، فالمستقبل يكون مثل الماضي أو شبيهاً بالماضي

وهناك أيضاً تنبؤات لمتنبئين تجدونها في الجرائد والمجلات، هؤلاء يتنبؤون بأشياء استثنائية لا تقع على الأكثر، فهل الوضع في المستقبل يكون كما يُتنبأ هنا وهناك من قبلهم؟ أن المسائل هي تقع صدفة

(١) تحدث السيد محمد علي الباقر (حفظه الله) بهذا الحديث في مسجد البلوش يوم الجمعة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ الموافق ٣٠/١٢/١٩٨٣ م، وقد تطوع بعض الأشخاص بطباعته مع شيء من التصرف نتيجة تحويل الحديث من مسموع إلى مقروء وقد لا يخلو من أخطاء غير مقصودة

كما يحلو لبعض المتنبئين، مثلا يقال إن فلانا هكذا يحصل معه والمكان الفلاني سيصيبه الزلزال وأمثال هذه الأشياء، بمعنى أن الأحداث تحدث صدفة

لا، لا هذا صحيح ولا ذاك صحيح، بل المستقبل بيد الله كما أن الماضي كان بيد الله، صحيح أن الله تبارك وتعالى جعل للكون نظاما وصحيح أن الله تبارك وتعالى أوجد حتى للحركة الإنسانية نظاما، لكن له المشيئة أن يُيدي وله المشيئة في أن يبدل، وله المشيئة في أن يغيّر وأن يُحكّم (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) (الأنعام: ١٨) هو القادر على كل شيء، بهذه النظرة نحن كمسلمين يجب أن ننظر إلى الكون، لا مؤثّر في الوجود إلا الله الواحد القهار، هذه المسألة ليست عبارة عن شيء نردّده باللسان بل يجب أن يكون مترسحا في القلب وهذا يمد الإنسان برؤية خاصة وبنور خاص، على هذا الأساس المؤمن حتى إذا غرق في المصائب سوف لا يقنط من رحمة الله وسوف لا ييأس من روح الله، لأنه يتعامل مع الأشياء على أساس من هذه النظرة، ينتظر رحمة الله دائما، ينتظر رُوح الله دائما

لاحظوا، يوسف (ع) يغيب مدة طويلة وكل المؤشرات تقول أنه مات أو انتهى أمره، فيعقوب (ع) يوصي أبناءه: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئِاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) هذه حقيقة. لاحظوا، إبراهيم (ع) يأتيه الملائكة فيبشرونه بولد، فيقول (أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ) (الحجر: ٥٤)، حسب المقاييس الطبيعية والموازن العلمية - وهذا شيء يعرفه الناس كلهم - أن الإنسان إذا تجاوز سنا معينة سوف لا ينجب، هذا صحيح لكن ألا توجد هنالك قدرة فوق هذه القاعدة؟ كيف تنظر إلى هذه القاعدة العلمية التي جربها الإنسان كثيرا؟ قالوا لا تقنط من رحمة الله، فإبراهيم (ع) يقول (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (الحجر: ٥٦)، لا، هذا ليس قنوطا لأني أحتمل أن الله تبارك وتعالى يفعل أي شيء لا يخطر ببالي (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (الكهف: ٢٣-٢٤)، فالمشيئة كلها لله، إذا شاء الله ألا تشرق الشمس لا تشرق، وإذا شاء الله أن ينخرم النظام الذي يسود الكون ينخرم، وإذا شاء الله أن تنفطر السماوات تنفطر، وهكذا

لا أن الإنسان يتذكر ويقول: نعم صحيح الله قادر، لا، بل يبني حياته على هذا الأساس، وعلى هذا الأساس المؤمن لا ييأس أبدا من روح الله، وعلى هذا الأساس المؤمن لا يقنط من رحمة الله، لا يوجد

هنالك شيء طاعٍ في نظر الإنسان المؤمن أبداً، الله أكبر من كل ما تتصور، من معطيات التكبير الذي يردده الإنسان هو هذا، الله أكبر من كل القواعد التي يتصورها الإنسان، من كل المقاييس العلمية التي يتصورها الإنسان، فالله هو الذي أوجد هذه القواعد وأصل هذه الأصول ونظم هذه الأنظمة

إذن ماذا سيكون العالم في السنة الآتية؟ ربما بعض الناس يقولون: المستقبل الله عز وجل يصنعه، فإذا كل الأمر لله، أنا أبقى محايداً والله هو يبدل ويغير! لا، (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)، إن الله يفعل ما يشاء لكن الإنسان خلقه الله تبارك وتعالى بشكل استثنائي، الإنسان ذلك الموجود الذي جعل الله أمر نفسه بيده، هو يختار، هو يريد أن يكون صالحاً أو يريد أن يكون فاسداً، فهو الذي يختار، فالله عز وجل لا يجبره، الله خلقه هكذا، من الممكن أن الله يسحب منه الاختيار ولكنه لا يفعل

فالإنسان هو الذي يختار، فهو الذي يغير ويبدل ويثبت ما في نفسه، كيف تريد أن تكون؟ أنت تختار، كيف أريد أن أكون؟ أنا أختار، أما العالم كيف سيكون فالله هو الذي يختار، فأنا لا أملك شيئاً من الأحداث التي ستحدث في العالم في السنة الآتية أو في السنين الآتية، بطبيعة الحال صحي يؤثر في صلاح العالم وفسادي يؤثر في فساد العالم، العالم مؤلف من حوالي خمسة مليارات شخص مثلي، فالصلاح إنما يكون نتيجة صحي وصلاح أناس آخرين، فأنا أملك نفسي، لكن الله تبارك وتعالى هو الذي يجعل للعمل تأثيراً في الخارج

إذن أمر بالمعروف، لا أياس من رحمة الله والنتيجة لا أكون مسؤولاً عنها فالعالم يصلح أو لا يصلح هذه القضية ليست مرتبطة بي مباشرة بل تحصل بمشيئة الله تبارك وتعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) (المائدة: ١٠٥)، بهذه النظرة المؤمن يتعامل مع الأشياء

بناء على هذه القاعدة، كنت أريد أن أتكلم عن هذه النقطة، هذه المسألة ذكرتها كمقدمة، وهي: أن الإنسان حينما يذنب ذنباً هل من الممكن أن يياس من رحمة الله؟ وأنه هو لا يستطيع أن يكون

إنسانا صالحا؟ طُبِق تلك القاعدة لا، وكذلك إذا إنسان صالح عمل الصالحات كثيرا ويتصور أن تاريخه تاريخ مشرق، هل يفكر بأنه لا يتغير؟ كل إنسان -غير المعصوم- معرض للخطأ بل معرض للانحراف الإنسان يرتكب معاصي، هذه المعاصي تصبغ نفسه بصبغة سوداء، لكنه في أية لحظة إذا شاء أن يرجع استطاع أن يرجع، فالله تعالى يغير له إذا هو أراد أن يتغير، أخطر شيء في حياة الإنسان هو اليأس من رحمة الله، القنوط من رحمة الله بأنه لا يستطيع أن يصلح نفسه، خلاص أنا رايح! (أنا رايح) هذا منطوق كفر

يروى أن شخصا كان مجرما قتل أناسا مؤمنين، فكان يفطر في يوم من شهر رمضان فراه شخص فقال له: لماذا لا تصوم؟ هل أنت مريض؟ قال: لا، ثم بكى وقال: إني ارتكبت معاصي لا ينفع معها الصوم ولا أشك أُنِي في النار، فعندما نقل ذلك للإمام الرضا (ع) يروى أنه قال: يأسه من رحمة الله أشد من معصيته^٢

ويُنقل عن شخص أنه عمل معصية عظيمة، ثم بعد ذلك كان يقول إن الله لا يغفر لي وكان متأذيا كثيرا، فينقل أن الإمام السجاد (ع) قال: إني أخاف عليك من قنوطك أكثر مما أخاف عليك من ذنبك ومن معصيتك^٣، وكذلك يروى أن شخصا أتى إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله إني ارتكبت ذنبا عظيما لا يُغفر، فينقل أن رسول الله (ص) قال له: ماذا صنعت؟ هل صنعت كذا؟ هل صنعت كذا؟ هل صنعت كذا؟ قال لا يا رسول الله صنعت أكبر من ذلك، قال رسول الله (ص): هل فعلت شيئا أكبر من الله؟ فقال لا الله أكبر^٤

مهما كان عمرك إذا انتبهت، اهتزت، وتريد أن تكون صالحا (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ...) (الزمر: ٥٣-٥٤)، لكن بشرط ألا تتلاعب لا تحدع لا تقل إذن أوجل التوبة، هذا معناه تلاعب، التوبة

(٢) عيون أخبار الرضا (١٠٠/٢)

(٣) كشف الغمة في معرفة الأئمة (٦٠/٣)

(٤) أمالي الشيخ الصدوق: ٩٧

المؤجلة سوف لا تحصل فكلما انصبغ الإنسان بصبغة رجوعه يكون أصعب، إنما التوبة هي حالة، حالة الرجوع، واقعا ترجع تهتز تندم، تتوب إلى الله فالله يتوب عليك

فالمسألة إذن تتوقف على شيئين: تحركك أنت إلى الله، وعمل الله تبارك وتعالى، والواقع أن المؤمن يتعامل فقط مع نفسه، يصلي لنفسه، لماذا؟ لله يصلي حتى يرضى الله عنه، يريد أن يتقرب إلى الله لأنه يجد في هذا سعادته، يأمر بالمعروف لنفسه ينهى عن المنكر لنفسه، يريد ثواب الله لنفسه، يريد جنة الله لنفسه، إذن لا يقنط، فيجد الله قادرا على كل شيء ويجد الله توابا رحيمًا، فإذا اهتز ورجع إلى ربه رجوع الله إليه، من تاب إلى الله تاب الله عليه، بطبيعة الحال التوبة لا تحصل إلا بأن لا تكون هنالك موانع تمنع الإنسان من الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، فلا يقول الإنسان إنني ذو تاريخ أسود ومستقبلي سوف يكون أسود! لا، أصلح نفسك ومستقبلك سيكون صالحًا، تقول أنا كيف أستطيع؟ أنت مسؤول بمقدار ما تستطيع، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: ٢٨٦)، والله ربك القاهر القادر الغالب على أمره الرحمن الرحيم هو الذي يفعل الأشياء، تقول إن ماضي العالم أسود، السنة الماضية كانت سوداء خصوصا بالنسبة للمسلمين، فالمستقبل يكون أسود، لا، ليس هكذا، والله في خلقه شؤون، وهو القاهر القادر فعال لما يشاء لا يسأل عما يفعل والناس هم الذين يُسألون

إذن فلنفكر، فلنتدبر، فلنتحرك، كل واحد منا يبدأ من الآن بإصلاح نفسه وفق المقاييس التي يحددها الله تبارك وتعالى، فالحركة يجب أن تكون إلى الله وحده لا شريك له، فإذا كان هكذا إن شاء الله فمستقبلي أنا أساهم فيه، إذا أصلحت نفسي يصبح صالحًا، وأنت إذا أصلحت نفسك -تستطيع ذلك- سيصبح مستقبلك صالحًا بقدرة الله تبارك وتعالى، من استغفر غفر الله له، من استصلح أصلحه الله، ومن أراد أن يكون صالحًا يصلح وبصلاحه سوف يصلح العالم كذلك بالتدريج، بالتدريج إلى أن يظهر الإمام المهدي (ع) والذي ننتظر دائما فرجه، ومن أفضل العبادات أو في الحقيقة أفضل علائم عبادة الله هو انتظار الفرج

والحمد لله رب العالمين